مقدمة

بقلم الدكتور طه حسين

فى مصر الآن نهضة قيمة لم تتناول حركة العقل وحده أو الشعور السياسي وحده ، وإنما تناولت كل شيء وامتد ظلها على جميع فروع حياتنا الخاصة والعامة فى كل ما تناولته الحياة من مرافق الأفراد والجماعات . ليست هذه النهضة حديثة وليس الشعور بها طريفا ، فربما كان أقدم ما نعرفه من أمرها وصول الفرنسيين إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وما كان لهم من الأثر فى إيقاظ المصريين وتنبيههم إلى أن للحياة مُثلا عليا غير ما ألفوه ، وإلى أن هناك واجبات اجتماعية لا ينبغى لأمة حية أن تجهلها أو أن تقصر فيها

أيقظ الفرنسيون مصر ونبهوها فاستيقظت وتنبهت ومضت فى سبيلها إلى الرقي متعثرة متباطئة ولكنها ثابتة القدم مزمعة الرأى على ألا ترجع أدراجها أو تقف من هذا الرقي عند حد . مضت فى سبيلها إلى الرقي وأخذت تغالب فى هذا السبيل خطوبا ثقالا منها الداخلي ومنها الخارجي وقد قدر الله لها أن تغلب هذه الخطوب وقد قدر الله لها أن تفوز

ولقد نعلم أن الأمد لا يزال بعيدا وبعيد جدا بيننا وبين ما نرجو من الحياة الصالحة فى كل شيء ، ولكنا نعلم أيضا أن الأمد بعيد وبعيد جداً بين ما نحن فيه الآن وما كنا عليه منذ قرن مضى . نعلم ذلك فنغتبط بما بلغنا ، وتقوى عزائمنا على أن نُجد فى سبيل آمالنا لا واهنين ولا متواكلين

ولقد نعلم أن ليس لما تسلكه الأمم إلى الكمال من سبيل غاية ولا حد ، فهى كلما وصلت من الرقي إلى طور استيقنت بأن دون هذا الرقي رقيا آخر يجب الفوز به والوصول إليه . حياتها كلها مضي سريع أو بطيء فى طلب هذه الغاية المنشودة التى لا نقاربها إلا بعدت ولا ندانيها إلا نأت . نسعى ولكنها تسعى أمامنا كأن قُدر علينا ألا ندركها . ولكن الفوز الحقيقي هو فى هذا السعي الذى لا أمد له ولا حد ينتهى إليه

لن يظفر بالكمال أحد ولن يكون للرقي العلمي أو الاجتماعي حد . إنما حياة الأمم حركة دائمة إلى الأمام ، وإنما الفوز كل الفوز والرقي الذى ينبغى أن يطمع فيه الأنسان هو أن تكون هذه الحركة متصلة ، وألا يعترضها من العقبات الداخلية أو الخارجية ما يقفها أو يجعل مضيها بطيئا ، وليس من شك فى أن مصر قد أخذت بنصيبها من هذا الفوز فشعرت وأحست وانبعثت فيها الحياة فمضت إلى ما تريد

هذا شيء لاشك فيه ولا حاجة إلى إثباته لأن ما نشهد وما نسمع مما يجرى ويقال فى مصر متظاهر على إثبات أنه حق

أرأيت إلى هذه الصحف السيارة لا تذكر إلا الاستقلال وتحقيق الآمال ، أرأيت إلى الناس فى مجالسهم لا يتحدثون إلا بالجديد ولا يرغبون إلا فى الجديد ، أرأيت إلى هذه الكتب تترجم وتؤلف ، وإلى هذه الفصول المختلفة تكتب وتنشر ، وإلى هذه المحاضرات تلقى ويتجاذب الناس فيها ألوان الحديث ، أرأيت إلى هذا كله ، إنه دليل على الحياة القوية وباعث فى الوقت نفسه على هذه الحياة . دليل على الحياة لأنه حركة ، فلنغتبط به ولنستزد

منه ففيه الخير كل الخير

لا ينبغي أن يزهدنا فيه أو يرغبنا عنه مانشهد من ضعف أو قصور، فكل ضعف إلى قوة، وكل انحطاط إلى رقي إذا كانت هناك الحياة الداخلية التي تمد الضعيف فتقويه وتنبعث في المنحط فترقيه

ولعل أقوى مايميز هذا العصر عصر النهضة الذى نعيش فيه ميل الشباب والشيوخ إلى ذكر الماضى وما كان لآبائنا فيه من بلاء حسن وأثر بعيد، فأن الأمة الحية حقا لا تحيا بحرصها على الحاضر وتهالكها عليه، وإنما ترغب فى تغييره وأن تستبدل به خيرا منه، وليس سبيلها فى ذلك أن تكلف بالجديد وحده كلفا لاحد له، وإنما سبيلها المعقولة أن تكلف بهذا الجديد وأن تستمد من القديم قوتها على تحصيله والفوز بالصالح منه

كذلك نهض أهل الغرب فهم حين سئموا حاضرهم إبان النهضة لم يندفعوا بالجديد إلا معتزين بالقديم، ولولا أن أتيحت لهم آثار اليونان والرومان وما كان لهم من مُثل عليا فى السياسة والأدب وفى الفلسفة والعلم لما قُدر لهم أن يقطعوا من الرقي هذا الشأو البعيد

كذلك نهضت أوروبا وكذلك تنهض مصر؛ ذكرت قديمها فنشرته، ونذكر قديمنا فنحييه، ولقد ننتحل لذلك العلل والمعاذير ونتكلف له الحجج والأسباب، والحقيقة واضحة جلية وهى أن هناك علة واحدة هى أننا أمة ناهضة نشعر بشخصيتنا ونسعى شاعرين أو غير شاعرين إلى أن نظهر كل مامن شأنه أن يقوى هذه الشخصية فى أنفسنا ويحمل الناس على أن يعترفوا بها، ومن هنا لا أصدق ما انتحله صديق الدكتور بيلي فى مقدمة كتابه هذا

من الأسباب التى حملته على أن يختار صلاح الدين موضوعا للبحث ، وإنما أعتقد أنه اندفع بحكم هذه النهضة المصرية العامة إلى أن يُظهر وجها ناصعا مجيدا من وجوه الشخصية المصرية ، فاختار من عصور مصر الخالدة عصرا قدر الله لها فيه أن تحمى الحضارة وتذود عن الأسلام ، وقديما قدر الله لمصر أن تحمى حضارة اليونان وتذود عن فلسفتهم وتحدث من هذه الحضارة اليونانية ممتزجة بالحضارة المصرية القديمة هذا المزاج الفلسفي البديع الذى تمثله الفلسفة الأسكندرية والديانة المسيحية أحسن تمثيل

أظهر الدكتور بيلى فى هذا الكتاب وجها من وجوه الشخصية المصرية التى حمت الحضارة مرات ، فعصمت حضارة اليونان وفلسفتهم من الضياع ، وصدت غارات الصليب عن الشرق وأهله ، فاستبقت للحضارة الاسلامية حياتها وقوتها ، ثم ذادت التتار عن هذا العالم الأسلامي أيضا ، وكانت آخر معقل آوت إليه آثار المسلمين العقلية والأدبية فظلت فيه آمنة حتى أتيح لها هذا العصر الذى نحن فيه والذى أخذ يبعث فيها القوة والحياة

ولقد أرى صديقى يتمنى أن يكون قد وُفق فى بحثه إلى شىء من النفع ولو قليل . ولعلى أستطيع أن أهنئه بأنه قد وُفق إلى شىء من النفع كثير وكثير جدا ؟

مارس سنة ١٩٢٢